

الغربة في شعر سعيد جاسم الزبيدي "على رصيف الغربة"، و"لملم حروفك"

أستاذ مساعد مريم البادي

جامعة نزوى / سلطنة عُمان

### المخلص

ينظر هذا المقال في قضية الغربة في شعر سعيد جاسم الزبيدي، ويحدد مدونته بديوانين، هما: «على رصيف الغربة» (٢٠٠٧)، و«لملم حروفك» (٢٠٢١). ويقسم البحث الغربة على محورين بوصفهما الأكثر تواتراً في المدونة: الغربة المكانية، والغربة النفسية. ومن خلال توظيف المنهج التحليلي، خلصت إلى أن الغربة في نصوص الزبيدي موضوع أصيل، تبني من خلاله قصائده جسور وصل بين بعضها البعض على امتداد إنتاجه الشعري كله، فجاءت متفاعلة، متضافرة، منفتحة على بعضها البعض، متجاوزة هم الذات وحدود التجربة الشخصية، لتشمل تعبير الشاعر عن معاناة المغتربين الذين دفعتهم الأوضاع السياسية والاقتصادية خصوصاً، للنزوح من أوطانهم، وإحساسه بتجارب النفي والضياع التي يعيشها الإنسان بعيداً عن وطنه.

**كلمات مفتاحية:** الغربة، الاغتراب، سعيد جاسم الزبيدي، «على رصيف الغربة» (ديوان)، «لملم حروفك» (ديوان).

### مهاد: في الغربة والاعتراب

تعدّ الغربة من المسائل الأزليّة المرتبطة بالوجود الإنسانيّ، «تتشكّل على صعيد المشاعر والأحاسيس، وتجتمع على تعميقها وتكثيفها عوالم اجتماعية وسياسية واقتصادية»<sup>(١)</sup>. وإذا ما نظرنا في مدونات الحضارات شرقاً وغرباً، قديمةً وحديثةً، سنجدّها حافلةً بأثار تعكس مظاهر غربة الإنسان على مستويات متعدّدة، نفسيةً ومكانيةً واجتماعيةً ودينيّة، وغيرها. وقد شهد العصر الحديث، بدءاً من القرن الثامن عشر على وجه خاصّ، جملةً من الأحداث والتحوّلات الفارقة التي ألقت بأثرها على الإنسان، ما انعكس على إنتاجه الأدبيّ والفكريّ، ومن ذلك أن فرض الواقع على بعض التجارب الشعريّة مازق الغربة الوجوديّة، وعدم الانتماء، وصارت الغربة في المجلد قضية فلسفيّة وفكريّة استقطبت اهتمام جملة من الفلاسفة والمفكرين.<sup>(٢)</sup>

ويَنفَق عددٌ من معاجم اللّغة على توضيح معنى الغربة بالنتحّي، والبُعد<sup>(٣)</sup>، وربطه غالبًا بنأي المرء عن وطنه، ومع ذلك يبقى هذا المصطلح ضبابيًّا، تناسلت منه جملة من المعاني المشوشة أحيانًا، من بينها: انعدام السّلطة، والانفصام عن الذات، والاستياء والعداء، والعزلة، والشّعور بفقدان المغزى من الحياة، والإحباط.<sup>(٤)</sup>

ويفرّق باحثون بين الغربة والاعتراب؛ فمنهم من يربط الغربة بالبُعد عن المكان، في حين يرتبط الاعتراب بالشّعور الداخلي بالعزلة وعدم انسجام المرء مع محيطه الخارجي، وينتهي عبد الرزّاق الخشروم في كتابه «الغربة في الشّعر الجاهليّ» إلى أنّ الغربة تحصل كرهاً، والاعتراب طوعاً<sup>(٥)</sup>. ونرى أنّ التفريق بين المصطلحين بهذه البساطة غير مقبول؛ فقد تكون الغربة طوعيّة، اختياريّة، كما حدث مع بداية القرن العشرين عندما نزح عددٌ من الشّعراء من لبنان وسوريا وفلسطين، وغيرها، من أوطانهم إلى الأمريكتين اختياريًّا. صحيح أنّ طموحاتهم الشّخصيّة والتطلّع لمستوى معيشة أفضل، والأسباب السياسيّة<sup>(٦)</sup> في أوطانهم حثّت بهم الخطى لمغادرتها، مع ذلك ينعدم المكره المباشر الذي يحملهم على الغربة، ثمّ ما لبث أنّ اشتدّت عليهم وطأة الحنين إلى الوطن والأهل ومرابع الذّكريات الأولى ومشاعر الغربة عموماً، لتظهر في شعرهم لاذعة عبّروا عنها بنصوصٍ غلبت عليها ثيمات: الحنين إلى الوطن والتطلّع إلى العودة إليه، والتّوق إلى الماضي «الجميل»، والتّركيز على القيم الإنسانيّة الفاضلة. وفي المقابل، حُمّل الإنسان على الغربة في بعض المحطات التّاريخيّة قسراً، وأجبرَ على الخروج من وطنه باحثاً عن وطنٍ بديلٍ، كما حدث إثر نكبة فلسطين في ١٩٤٨ من نزوح النّاس في أوطان الشتات، فظهرت أصواتٌ شعريّة قوامها معاني الغربة والتّقي والضّياع والألم والمطاردة والتّشرد<sup>(٧)</sup>، والإلحاح على حلم العودة كما نقرأ في شعر محمود درويش الذي صوّر معاناة فلسطين كما لم يصوّرها شاعرٌ حديث غيره. وعليه فمثلاً لا تحصل الغربة كرهاً دوماً، فإنّها لا تكون اختياريًّا بالمطلق. وكذا فالاعتراب ليس طوعاً دوماً؛ فقد يُحمل المرء قسراً، مرغماً، على الاعتراب عن الوسط الذي يعيش فيه وهو بين أهله وفي وطنه، تدفعه لهذا ظروف مختلفة، منها اختلاف توجهاته النّفسيّة والفكريّة والسلوكيّة أحياناً عن الوسط المحيط، ما يُسفر عنه انكفاؤه على ذاته واعتزاله تنافساً أو تعاليًّا أو زهداً، أو غيره، كشكل من أشكال الرّفص، أو التّمرد السّلبّي، أو ربّما إعلان محاولته إضفاء بصمة تغيير في الواقع المحيط<sup>(٨)</sup>. وعلى كلّ حال، فإنّ الاعتراب أكثر تعقيداً من الغربة من حيث أثره على الإنسان وانعكاساته على مشاعره وانفعالاته ومواقفه من الآخر، إذ يحدث الاعتراب عن الذات إذا ما انطوى «على شعور الفرد بانفصاله عن ذاته وهو نمط من التّجربة يرى الفرد نفسه فيها كما لو كانت غريبة عنه»<sup>(٩)</sup>، فيسعى سلوكيًّا وراء مظاهر تتماشى مع محيطه ولا تعبّر حقيقة عن اختياراته وشخصيّته،

وقد يكون الاغتراب عن الذات بمعنى «افتقاد المغزى الذاتي والجوهرى للعمل الذي يؤديه الإنسان وما يصاحبه من شعور بالفخر والرضا»<sup>(١٠)</sup>. على أن رسم خطٍ فاصلٍ واضحٍ بين المصطلحين يبدو رهاناً شائكاً، نظراً لتفاوت أصول النظر في هذه القضية وتشعبها، ما يدفعنا إلى التفكير في إمكانية الجمع بينهما لنوظف الغربة والاغتراب في هذا المقال بالمعنى نفسه.

ولعل الشعراء والفنانين من أكثر الناس حساسية إزاء الواقع المحتدم حولهم، وأقدرهم على التعبير عن توقعهم لتجاوز أعطاب الحياة اليومية وتصوير عالمٍ مثالي لا يوجد إلا في مخيلاتهم؛ فيسعون من هذا المنطلق لتشبيده وتشكيله بصورٍ فنيةٍ يرتضونها ويغذونها بالفن والجمال. بهذا المعنى، تكون أصواتهم تجسيدا شعرياً لموقف الإنسان إزاء فوضى الضياع والهوان الذي يعيشه في وطنه، ورفضه التماهي مع واقعه. تقول خالدة سعيد عن الشاعر عموماً، والشاعر الرومانسي، على وجه خاص: يحافظ الشاعر على مسافة تفصله عن العالم الخارجي، يدفعه إلى هذا شعوره بالغربة عن الآخرين حوله، ويعزز هذا الشعور انتمائه إلى عالم الحلم والخيال والشعور بدونية الواقع وفشله عن بلوغ تطلعات الذات وآمالها، لذلك نجد الغربة في شعر الرومانسيين من بين أكثر الموضوعات الشعرية حضوراً<sup>(١١)</sup>

وقارئ دواوين الشاعر سعيد جاسم الزبيدي السبعة<sup>(١٢)</sup> سيجد اختيار تسليط الضوء على الغربة في شعره في هذا المقال ينسجم مع تواتر إلحاح قصائده على هذه الثيمة؛ إذ سيلحظ القارئ أن قصيدة الزبيدي في مجموع دواوينه - محكمة بهذه القضية غالباً، لا تكاد تنفك عنها. صحيح أنها أكثر بروزاً في دواوينه المتأخرة كما لاحظت، لكنّها موجودة في دواوينه المتقدمة أيضاً بوفرة. فإن كتب الزبيدي في الإخوانيات جعل مشاعر الغربة جسراً وصل بينه والمخاطب، ذكره بأيام الوصل التي خلت بينهما، وتاق لعودتها، ورثى أحوال الذات وما صنعتها الغربة في النفس، وإن كُتبت عن الوطن والحنين إلى مرابع الصبا والأهل والأصدقاء والطفولة عرج على غربته وجعلها موضوعاً، وإن رثى التمزق العربي ومآلات السياسة كشف سوءات الاستبداد وهوان الناس في أوطانهم ثم أودع قصيدته مواجع الغربة وأسأها، وإن تحدث عن تحوّل الزمن جعل ثقل إحساسه بغربته واغترابه عن زمنه الحاضر مصدراً لبناء قصيدته، وإن كتب عن الذات في منعطفات انكساراتها أو في أوج إرادتها وقوتها عطف على الغربة، وجعلها متكاً وحيه الشعري. وهو في كل هذا يوظف الغربة في قصيدته بوصفها تجربة إنسانية عامّة لا خاصة فحسب، وإن جعل في بعض قصائده ذات المتكلم وحدها مرجعاً لمسارات القول والتعبير.

ولمقتضى سياق هذا المقال وزمن إنجازه، حدّدت مدوّنته بديوانين من بين أعمال الشاعر؛ هما: «على رصيف الغربة» (٢٠٠٧)، و«لملم حروفك» (٢٠٢١)، وتقديمهما في الآتي:

### المدونة: «على رصيف الغربة» و«لملم حروفك»

إنّ ميّز اختيار هذه المدونة فرضه الموضوع نفسه؛ فبعد قراءة متأنّية لدواوين الشّاعر، وجدتُ الغربة قضيةً محوريّة خصوصاً في «على رصيف الغربة»<sup>(١٣)</sup>، وإن كانت حاضرة دوماً في باقي دواوين الشّاعر، وأجدُ أن قراءة عامّة لهذا الدّيوان ستسفر عن الوقوف على ستّ وعشرين قصيدةً مضمخةً بمفردات الغربة ومعانيها على نحوٍ مباشر، أمّا إمعان النّظر في مجموع قصائده الأربعين فسيفضي بالقارئ إلى إمكان ربط قصائد الدّيوان جميعاً بثيمة الغربة.

### - عتبة العنوان:

أمّا عتبة العنوان، «على رصيف الغربة»، فإنّها لم تُعيّن عشوائياً، إنّما تُخيّرت عن قصدٍ ودراية؛ إذ تُغلّن عمّا سيّجده القارئ في متن الدّيوان. يؤكّد النّاقّد الأستاذ الدكتور محمّد مدني في مقدّمته الأدبيّة النّقديّة، التي صُدّر الدّيوان بها، هذا المعنى؛ إذا يرى أنّ قصائد الدّيوان مثّلت بسطةً لمعاني الغربة وطقساً شكّل شعريّة المتن، فألحّ مدني في مقدّمته على الغربة بوصفها رافداً نهل منه الشّاعر صورته الفنيّة، ومعانيه. يقول: إنّ الزّبيدي في ديوانه «على رصيف الغربة» شأنه شأن الأدباء الكبار، يسخر إمكانات اللّغة ليرسم «معالم الإنسانية المتأكلّة المهترئة» صوراً فنيّة تدفع الإنسان لاكتشاف ذاته، وهو في كل هذا يكتب قصيدته ليقدم من خلالها وطناً بديلاً يتّسع للأحلام التي استباحتها الحروب، يكتب عن بساتين الفرات، وعن أهل العراق ونخيله السامقات، يكتب عن مشاعر تجسدها الغربة<sup>(١٤)</sup>. ويضيف أنّ الزّبيدي «شاعر يكتب القصيدة هواية عن مشاعر الأسي.. ونكاية في غربته.. وعن غربته، يراوغ نكده، [...]، ليكتب عن عراق يعيش معه وفيه وإن فارقه منذ زمن طويل [...]، يكتب على رصيف الغربة عن رصيف الغربة، فنكاد لا نعرف أيهما على رصيفها؟ الشاعر أم وطنه العراق الذي يعيون الغربة يراه؟!»<sup>(١٥)</sup>

أمّا الدّيوان الثّاني ضمن المدوّنة، «لملم حروفك»<sup>(١٦)</sup>، فهو صوت آخر يحمل أعباء الغربة الإنسانيّة وأسى البعد عن الوطن والأهل والأحبّة ضمن أعمال الزّبيدي. يقول الشّاعرُ في مقدّمة الدّيوان: «حين لم يستطع الشّاعر أن يللم أجزاءه التي بعثرتها الغربة، عطف على (حروفه) محاولاً أن (يللمها) بعد أن توزّعت حيثُ أهلّه وأحبته وأمكنته التي تسافر معه»<sup>(١٧)</sup>، ويكتب أيضاً: «إن هذه السطور ليست مقدّمة، بل هامش على (غربة الروح) التي قد تسلل إليك من خلال (حروفي)»<sup>(١٨)</sup>، فمن بين قصائد الدّيوان البالغ

عدها سبعا وستين قصيدة نقرأ إحدى وأربعين قصيدة تطرق الغربة مباشرةً مقابل ستٍ وعشرين قصيدةً يمكن ربطها بهذه القضية.

انطلاقاً من هذا التقديم للموضوع المدروس والمدونة، سأقسّم الحديث على محورين بوصفهما الأكثر تواتراً في طرق الغربة في مجموع قصائد الديوانين. هذان المحوران هما: الغربة المكانية، والغربة النفسية.

### التحليل:

#### - الغربة المكانية:

للمكان دورٌ هام في تحديد هوية الإنسان، وتوجيه إدراكاته وتصوّراته وطباعه. وتحصل الغربة المكانية بحدوث فصلٍ بين الفرد وبيئته<sup>(١٩)</sup>، وهي تمثل ثيمةً حاضرةً بوفرة في الأدب العربي نظراً للظروف المختلفة التي عاشها الإنسان، محكوماً بظروف البيئة الشحيحة أحياناً التي حملته على التنقل الدائم والنزوح، أو محكوماً بالظروف السياسية والاجتماعية المختلفة، أو بهذه الأسباب مجتمعة.

وتمثل ظاهرة «الطلل»، ومطالع بكائيات الأماكن والأحباب في القصيدة العربية القديمة انعكاساً لهوية نزوح العربي وغربته المكانية، وقد شهد العصر الحديث دوافع عديدة لتأطير هذه الهوية ما انعكس على الشعر الحديث حتماً.

ولما كان الحنين إلى الأرض سمة التعقل والرشد - كما يقول الجاحظ<sup>(٢٠)</sup>، فمن الطبيعي أن يأسى الشاعر، والإنسان عموماً، على أرض ألفتها ثم رحل عنها إلى غيرها، وإن صارت له الأخرى وطناً.

وتمثل الغربة المكانية قضية بارزة في شعر سعيد الزبيدي، إذ يستغرق الشاعر عبر قصائده في تقديم وقائع ذاكرته عن الوطن، العراق خصوصاً، وبلدان الوطن العربي عموماً حيث عاش فترات مختلفة؛ فنتضافر قصائد متعدّدة في رسم صور مرابع الطفولة والصبا، وذكريات البيت الأول، والقرية الصغيرة وزواياها، والمدرسة، ودروب الطفل الصغير التي عفت، ثم يتجاوز تفاصيل المكان الأول إلى الحديث عن الوطن الكبير، لكنه لا يلبث أن يعود إلى الإيقاع الأول فيشيد صور الوطن الذي تحمله الذاكرة؛ ليجعل من تفاصيله مادةً تطبّب مآزق الذات التي «أجبرت» على الرحيل عن المكان الأحب، وتسدن النفس المتعبة في غربتها.

ويلجّ الزبيدي على الحنين إلى المكان متجاوزاً تجربته الخاصة للتعبير عن تجربة الإنسان الذي أجبرته ظروفه أن يقصد وطناً بديلاً، فغادره وأبقاه خالداً في قصيدته، ليمدّ صوته بعيداً معبراً عن معاناة الإنسان

شأن أصوات شعراء العراق الكبار الذين تجاوزت قصائدهم المكان الخاص إلى العام، وتجاوزوا من خلالها حدود الذات الفردية إلى الذات الجماعية.

يكتب الزبيدي غربته على غرار هؤلاء، فيرسم التفاصيل الصغيرة للمكان الأول، موظفًا إمكانات اللغة للوقوف على أطلاله، مشتكيًا من وقع الفراق على جسده وروحه، علّ الشكوى تمدّ جسر وصل مع المغتربين في معاناتهم أيضًا. يكتب مثلًا عن قرينته المحاوليل التي ولد فيها وترعرع قصيدة عنونها بـ«رؤيا»<sup>(٢١)</sup>، ومطلعها:

في ليل غربتنا تأتي المحاوليل \* رؤيا، وليس لدى التأويل تأويل...

ثم يواصل الحديث عن ذكرياته القديمة التي تربطه بالمكان، ويبثّ لواعج أشواقه وحنينه إليه، ويختتم القصيدة بجعل «المحاوليل» أصل هويته، ووطنه، وأهله، وذاكرته، في إشارة لعمق أثرها في نفسه.

والآن ما عدت أدرك أن داري وحارتنا \* ورفقتي وأنا هذي المحاوليل

ويتحدّث الشاعر في قصيدته «وطني حلّ بي»<sup>(٢٢)</sup> عن حاله وحال المغتربين عن أوطانهم، وكيف أنّ مشاعر الهمّ والهوان والأسى يقضّ مضجع المغترب، فلا يجد سلوى لحاله، ويظلّ مشدودًا إلى العودة إلى المكان الذي غادره، حاملاً همّه لتبوح به لغته:

وأقام الليل أو أقعدّه \* بحروفٍ عبرت ألف سنة

منحّته رفقةً في غربةٍ \* ورأى فيها الذي قد أمّنه

وفي قصيدته «سؤال عن...؟»<sup>(٢٣)</sup> يجعل الزبيدي من الشّعْر وطنًا له، يلوذ باللّغة يشيّد من خلالها وطنه المُمتمنى شأنه شأن الحالمين الذي ضاق الواقع بأحلامهم: «أيّها السائل عن داري، وعن... / إنّ لي في كلّ ما أهوى وطنًا! / فورياتي التي أشبعثها بوحًا وطنًا! / وعيونٌ ألتقيها مثقلاتٍ بروى الغربة من شوقٍ وطنًا! / وشفاءٌ لهجت حبًا، وغنثٌ للفراطين وطنًا!»، ويواصل قصيدته يفكّ قيود «الوطن» الضيقة، والأطر الجغرافية المحدودة، ليعبر الأفق بالمعنى، فيجعل الشاعر من كلّ شيء وطنًا له؛ فاللّغة وطن، وقصيدة يكتبها أو بيت شعر يقرؤه وطن، والمقاهي، ووجوه الأصدقاء ودفء الأقباء، والهموم المشتركة، والأحلام، والأرصفة، والمطارات، وبيوت الله، والأكوخ البعيدة، والنجوم التي في السّماء كلها أوطان له، ومع كلّ هذا فإنّ الكون بأسره يضيق على المرء عند إحساسه بالظلم: «إنّما الكونُ - وإنّ متّسعًا - / حينما

يظلمني ليسَ وطنٌ»<sup>(٢٤)</sup>. وبهذا المعنى فإنَّ الشَّاعر يوظِّف قيمة أخلاقية وإنسانية لتأطير مفهومه للوطن، متجاوزًا المعاني المادية الضيقة.

يبدو التناقض الإنساني في البيت السابق للشاعر، وهذا التناقض نتيجة للذات المغتربة التي تستقر كي تغترب، وتغترب والأوجاع تنهش بقايا إنسانيتها، إننا أمام تناقض حضاري يعيشه الإنسان العربي سواء كان غريبًا في بلاد الله أم مغتربًا في بلاده. فالنص الشعري للزبيدي ترجمة للتناقضات العربية – العالمية، مناداة بالحرية هناك وتقييد الحرية هنا، شعارات الإنسانية وحقوقها هناك، وهدر لكل إنساني هنا؛ لذلك جاء التناقض في النص الشعري على مستوى مفرداته ومعانيه طبيعيًا ومعبرًا عن أزمة الغربة التي تعيشها الإنسانية وفي القلب منها الشاعر / كل شاعر.

وبيث الزبيدي في إخوانياته لواعج غربته المكانية، طالبًا من أحبته تخفيف وطأة بعده عن وطنه بالتلطف بمدِّ حبال الوصل بينه وبينهم. يقول في قصيدة بعنوان «لكي نلتقي» مهداة إلى صديقه الدكتور محمود السليمي:<sup>(٢٥)</sup>

تعالَ أعزني هنا نظرة \* تنور لي شوطَ عمرٍ حاك  
لنتداح عني همومُ اغترابٍ \* ويرفضُ ما بالصلوعِ اشتباكٍ [...]  
فلو جرَّعتك النوى مرَّها \* وضاقنَّ خطاك بطول السكك  
عرفتَ الذي يصطليه غريبٌ \* وماذا يعاني إذا لم يرك  
فصلٌ حبلٍ ودي لكى نلتقي \* فذلك أجدى لنا ثم لك!

فإذا كانت الغربة موحشة، فإنَّ الوصل في الوطن الجديد، كما النعمة، أُنس للمغترب من وحشته – على حدَّ تعبير الجاحظ<sup>(٢٦)</sup>، وهو المعنى الذي يوظفه الزبيدي في مخاطبته صديقه في الشاهد السابق، مؤكِّدًا أنَّ لا شيء يطيب أسى الفراق ويُعده عن وطنه وإحساسه بالغربة بين الناس عدا حبل وصلٍ من المودة والأنس بين الصديقين.

يُكثر الشاعر من أحاديث الوصل مع الأصدقاء، وهو في الحقيقة يقاوم الاغتراب النفسي الذي يعاني منها، ففي خلوته بذاته نزوع للألم: ألم الفراق، الوحدة، غياب الأهل والأصدقاء، غياب الوطن، وهذا ما

نلاحظه في ألفاظه: هموم واغتراب، ضاقت وطول، كل هذا يستحضره في ذكرياته، فيهرب من تلك الذكريات ليقيم مناجاة أو لقاء نفسيًا متخيلاً يجد فيه بعض السلوى ويجدد به الآمال التي أوشكت على الغياب والتعبير عن همّ الغربة المكانية في نصوص المدوّنة يتجاوز الدآت ليشمل كلّ عربيّ أُجبر على مغادرة وطنه، فظلّ باحثًا عن وطنٍ بديل، مختبرًا الدرس الذي لُفته صغيرًا أنّ بلاد العرب وطن واحد، فيجد الواقع بخلاف الشّعارات الجميلة التي على الورق.

يعبّر عن هذا المعنى في قصيدته «هموم عربيّ مسافر»<sup>(٢٧)</sup>، حيث يتدارك شكّ مخاطبته في سبب حزنه، ويبين لها: «لا يذهب الظنُّ بما دار بفكرك، / إنّ ما أخفيه أسمى صورة عندي وأكبر / بعضه جرحٌ تنزّى منذ خمسين وأكثر / لم يعد عندي وطن: / لا، ولا بعضٌ سكن / فلقد غادرني الإحساسُ مذ غادرتُه نحو اليمن: / ساخرًا ما وعته الذاكرة، / "أنّ بلادَ الغُرب" لي من بعده خيرٌ وطن! / فإذا بي أتلقّى صفةً / في المطارات، وفي كلّ الحدود!...»<sup>(٢٨)</sup>

ويشارك الشاعر هموم الغربة، ووطأة البُعد عن وطنه مع أصدقائه المغتربين الذين حُمّلوا على مغادرة أوطانهم إلى آخر بديل، يقول مخاطبًا صديقه الشاعر كريم العراقي:<sup>(٢٩)</sup>

فهذي الغربةُ الرعناءُ شاءت \* لنا ذلًّا تجفُّ به المدامع  
وغصت من أذى وأسى لهاة \* وذابت أحرف، وخبّت بدائع  
وما خوفًا ولكن خاب ظنُّ \* بمن ركب الكراسي والمطامع

ومن المعلوم أنّ كريم أحد أدباء العراق الذين نزحوا خارجه منذ تسعينيات القرن العشرين، وإنّ يتحدث معه الزبيدي في قصيدته بضمير الجمع فإنّه يشارك المخاطب في تجربة عاشاها معًا: مرارة الغربة والأسى الذي يخلفه البُعد عن الوطن في نفوس المغتربين، والحنين الدائم إلى المكان الأوّل وأهله. وتأتي كلمات مثل: ذلًّا، أذى، خاب، وكل هذه الألفاظ تحمل الجانب المعنوي والمادي؛ لتجسد الواقع النفسي المشترك بين كل غريب / شاعر مغترب في غربته الواقعية أو اغترابه داخل وطنه.

والزبيدي ذاك العالم الذي ضاق به وطنه ولم ينصفه، فتركه ويمّ سعيه إلى أرض الله الواسعة، ومع ذلك ظلّ وفياً له، ووظفه رمزًا في قصائده، وأعلن تمسكه به، والدّود عنه، يقول مثلاً:<sup>(٣٠)</sup>

تهون من المصائب ألفُ شكوى \* ونطوي دونها قلبًا مُصابًا  
سوى الأوطان إن مُست بضمٍ \* فداها أحرقُ الدنيا عقابًا  
وأرخصُ مهجتي، أو كلَّ غالٍ \* لعينيها اعتزازًا واحتسابًا

وتظهر نزعة الاعتزاز بالوطن في هذا الشاهد جليّة، حتى إنّ استعداد الذات للذود عنه مقدّم على أيّ أمرٍ آخر.

ويقول أيضًا في قصيدته «وطني حلّ بي»: (٣١)

كلُّ مَنْ غادرَ يومًا وطنه \* فارقتُهُ الروحُ إلا بدنه  
لم يسع من نعمة موفورة \* ضاعفت في كلِّ يومٍ حزنه  
وإذا مرّت به أغنية \* كان يهواها تحاشي أدنه  
حينها يرتدُّ منها راجيًا \* مثل شحاذٍ تمئى حسنه ...

فكلّ التفاصيل توحد حنين الذات إلى الوطن، وهو تصوير للحالة النفسية التي خلقتها غربة الشاعر عن وطنه. والملاحظ أنّ الزبيدي يضيف على التجربة الخاصة طابعًا عامًا، «كلُّ مَنْ غادرَ يومًا وطنه»، فالحسرة، والأسى، والحزن قدر كلِّ مغتربٍ.

وبصوت من ضاقت به غربته وأيقن بعد اختبار وتجربة أن الوطن الذي دفعه للغربة يومًا يبقى الأعرّ في الكون كله، يقول: «فأيقنتُ -ذا دائمًا هاجسي- / بأنّ بلادي على جورها/ وحالي بها على فقرها/ أحبُّ إليّ، أعرُّ لديّ/ من الكون ضاق بنا كالسجون» (٣٢) وكأنه في هذا صدى لأمير الشعراء أحمد شوقي في قوله:

وطني وإن شغلّت بالخلد عنه \* نازعتني إليه في الخلد نفسي

لكنّ شوقي رغم اغترابه لم يفقد الأمل ولم يصبه الأسى والحزن؛ لأنّ غربته كانت نتيجة لنفي المحتل له، وكان على يقين من عودته، كما أن زمان شوقي ورغم أن الأوطان كانت فريسة للاحتلال لكن قسوة الزمان وقهره وتربصه لمن يكن بهذا الوضع المأساوي، بخلاف تجربة الزبيدي المأزومة، وهذا تؤكد المفردات ففي بيت شوقي، جاءت ألفاظه دافئة تعبر فقط عن الحنين والرغبة في العودة مهما مُنح من خيرات في

موطن جديد على خلاف الزبيدي الذي وظف هاجس، جور، فقر، سجن؛ ليعبر عن حاله داخل الوطن وخارجه.

وفي قصيدة «بابل» يعاتب الزبيدي وطنه الذي دفعه إلى الغربة، وتنكّر لأبنائه وأصابهم بالهوان والإذلال وأشكال من التبعية والقمع مختلفة، وهو عتب المحبّ الوفي<sup>(٣٣)</sup>. يقول:

لـ (بابل) جئتُ أستبقُ العتابا \* ولا أدري أحابي أم أحابي [...] ]

ولستُ أبتُّ من شكوى لأشكو \* وأستجدي بها عطفًا كذابا

ولكّني وقد غصتُ لهاتي \* بما قد أثقلَ الروحَ اغترابا

ولعل الشاعر اختار مدينة بابل مستهلاً بها البيت الأول ليربط بين الماضي العظيم لحضارة بابل، كيف كانت وكيف أمست، وبين الزمنين بون شاسع تملؤها النكبة والخيبة وغياب الأمل والاغتراب.

ويذكر الشاعر وطنه بعمره الذي أفناه متعلماً ومعلماً، ويذكره أيضاً بالأثر الذي تركه في الأجيال التي تتلمذت عليه، وعرفته، لعلّ في العتاب جدوى:<sup>(٣٤)</sup>

أهذي قيمة العمر اختصارًا \* لسادنٍ أحرفٍ أفنى الشبابا؟

أعيدُ هنا هداةَ الجيلِ أتي \* ملأْتُ جيوبَ أثوابي عتابا

وكم لي من أيادٍ شهاداتٍ \* فتحتُ بها إلى الأجيالِ بابا

تتناص الأبيات السابقة مع عبارة لا نبي في قومه، فلم يشفع للشاعر ما قدمه طيلة سنوات كفاحه من علم ومعرفة وفكر لأبناء الوطن، فبرغم كل ما قدمه عقله وفكره انتهى به الحال إلى الغياب أو النكران.

ويلح الشاعر على معنى الوفاء للوطن وإن تنكّر الوطن لأبنائه، وعتب الشاعر عليه، لكنّه يظلّ وفياً لذكرياته فيه، ووفياً لمجده وحضارته، وإن أصيب ببأس، فالأمل أن يتجاوز هذا الأقول ويعود كما كان شامحاً قوياً، إذ أيقن الشاعر بعد أن خبر البعد عن وطنه وأهله أنّ لا جنة في الأرض تغني عن جنة الوطن. يقول في قصيدته «ما زال منتظراً»:<sup>(٣٥)</sup>

لم تُغرني أرضٌ وإن \* أغرى حقائبنا النزوحُ

فنعيم كلِّ الكون، والـ \* عيشُ المرقّةِ والصروحُ

لم يُغْنِي عن غفوة \* كانت وصادتها السطوح  
 عن رملة، وجه الفرات \* بها من اللقيا صبوخ  
 لا، لست أطمع في سواها \* أيها الموت الجموح  
 دعني بها ألقى عصا التـ \* رحال نمة أستريح

تلح ألفاظ الغربة والألم في حديث الشاعر وهو يتغنى بحب وطنه، فالغربة وصراعات الإنسان في عصرنا الحالي ترك بصمات الوجد داخل النفس البشرية.

وحين ألح أهل الشاعر وأحبته عليه للعودة إلى الوطن، ذهب يقنعهم أن أحوال الوطن من فرضت عليه الغربة ولم يخترها لطمع في نفسه، وراح يذكرهم بما آلت إليه الحال من تنكّر الوطن لأهله، وانسداد الأفق أمام العائدين إليه، بل إن عاد فسيكون غريباً في وطنه أيضاً كما هو غريبٌ خارجه؟ فلاي شيء يعود؟! يخاطب الزبيدي أخاه الشاعر الدكتور وليد جاسم الزبيدي في قصيدته «كيف أرجع؟»؛ إذ استبطاً الأخ عودة أخيه، وأرهقه تعب انتظاره إلى وطنه، فسأله عن أجل الغربة التي طالوت وموعد العودة إلى الأهل والوطن، ليكون الجواب: «أتسألني: متى أرجع؟// كأنك لم تكن معنا، ولم تشهد، ولم تسمع!// كأني جرني بطر إلى شوط به مطمع!// ولم تسألني: عن ظلي الذي دُبل!// وعن عقدين من همّي بما اشتعل!// وعن كفين متقلتين يرعش فيهما الإصبع!// فكم مرّت ليالي، كنت لا أستطيع أن أركع!// وعن كتبي وقد أدركت كم أنفقت من عمري أداريها، فعاث بها الغبار المر،/ أطفأها، وأغطش كل ما فيها!// وعن أملي الذي خبأته عن أعين الحساد،// مخافة يورث الفشلا!// وعن درب تلبّد حين حقيبتني قد لملت وشلا!// وعن وطن تنكّر لي، فما سألا!// وتدري أنه من كل خير فيه قد بخلا!// كأني لم أعش عنّاء، ولم أمنحه من عمري، ولم...//[...]]// وقل لي: كيف أن أرجع؟ أرجع كي أمد الكف شحاذاً!// ولا سقفت يظللني! وهل أعمل؟ أو ماذا!// إذا لم تستطع! دعني،/ فما من عودة تنفع! ولا تأسف إذا ما مت مغترباً،/ وحسبك منه أن قد قلت لي ارجع!». (٣٦)

فالسائل والمسؤول يعلمان أن الشاعر لم يختر الغربة طمعاً في ثراء، إنما فرضت عليه، ثم سدّت أمامه سبل العودة إلى الوطن الذي تنكّر لأبنائه، وبخل بالاعتراف بما أنفقوه من أعمارهم وجهدهم لأجله، وما قدّموه من تضحيات في سبيله، وما إن نضجت مشاعر الخذلان في نفوسهم، وتعمقت معاني الخيبة والشقاء لتتكره لهم، لم تعد العودة خياراً ممكناً، إنما صارت تعني المضي إلى المجهول، والتقهقر إلى نقطة البداية،

وبالتالي فليس أمام الشاعر إلا خيار المضيّ في غربته ومحاولة التّصالح مع الواقع، ومواصلة الخطى التي كُتبت عليه، وإنْ أفضت به إلى الموت مغترّبًا. فهل تصالح شاعرنا الزبيدي فعلاً في غربته؟!

يقول النّاقِد صلاح بوسريف أنّ الشّعْر، الشّعْر، ما تمكّن من ترويض القارئ وجعله طرفًا في مأزق تشكيل معنى النّص<sup>(٣٧)</sup>، وبهذا المعنى فليس كلّ ما يصفّ من كلمات تحت مسمّى الشّعْر يبلغ منزلة القدرة على إشراك القارئ في مأزق المعنى، أو حتى جعله طرفًا متفاعلاً من بعيد. وكوني قضيتُ وقتًا في تتبع معنى الغربة في دواوين الزبيدي، قبل الاستقرار على مدوّنة هذا العمل، فإني أعترف أنّ بعض قصائد الشّاعر حملتني على التّفاعل مع معاني الأسى والشكوى والحنين والألم التي وشمتها الغربة في أعماق الذات الشاعرة، وحين وقفْتُ على عنوان قصيدته «تصالحنا مع الغربة»، ظننتُ أنّي سأخرج قليلاً من جوّ الغربة ومعانيها، وقلت في نفسي ها هو الزبيدي يرفع الرّاية البيضاء مصالِحًا غربته، لكنه كسر أفق توقعي ولم يصدق المتن ما ظننتُ، إذ جعل الشاعر الوطن البديل وطنًا مؤقتًا، فأررار حقائق المغترّب فكّت تصالِحًا مع الواقع، لكنها لم تُفرغ ما بداخلها، إذ المكان ما زال ليس وطنًا نهائيًا، رغم سعي الذات للتصالح مع الواقع، ورغم سقوط الألقاب في إشارة إلى اعتبار الذات الآخر أهلاً ووطنًا، ومكان إقامة. يقول: «تصالِحنا مع الغربة،/ كلانا عاف خندقه/ وبادرَ يبتغي توبه/ وكم بقيت حقائقنا تَوسدُ أذرع السفر/ وتبدو صنع مُنتظر/ وعادت، فاستراحت، فكّت الأزرارَ في حذر،/ ولم تفرغ/ تصالِحنا مع الغربة،/ وألغينا هنا الأسماء والألقاب والرتبة/ وصارت بيننا نسبة/ تُسمّى في فصيح القول بـ(الصُحبة)؟». (٣٨)

### - الغربة النفسيّة:

تتزايد الغربة النفسية في العصر الحديث؛ فبرغم التقدم التكنولوجي الكبير، التقدم الذي قرّب المسافات، وجعل الإنسان المرتحل إلى بلاد بعيدة يسهل التواصل مع ذويه بسهولة، فإن الشعور بالتباعد الاجتماعي أمسى كبيرًا بسبب وسائل التواصل التكنولوجي والاجتماعي، التي حولت الألفة الإنسانية والعشرة إلى افتراضية تغيب عنها الروح والدفء العاطفي. وتتنعم الغربة النفسية مع تفاقم المشكلات الحضارية والصراعات الدموية التي جعلت من عالم اليوم غابة، يسعى الكبير القوي إلى التهام الصغير المستضعف وهضم حقوقه، مما أسفر عن حالة تشظي نفسي واجتماعي، خلقت داخل الإنسان نفسية غريبة أو مغتربة مهشمة ومهمشة. ومن صور الغربة التي سيطرت على الإنسان بصفة عامة والشعراء بصفة خاصة الغربة الزمنية.

يقول مندلاو في حديثه عن هاجس الزّمن الذي يسيطر على مشاعرنا وأحاسيسنا في القرن العشرين: «ربما لم يتغير شعورنا تجاه الزمن على نحو جذري مثلما تغير في القرن العشرين، ولا اكتسب من الأهمية في أعيننا مثلما اكتسبه في هذا القرن»<sup>(٣٩)</sup>، نظرًا للأحداث والمتغيرات التي لم يشهد الإنسان لها مثيلًا في أيّ مرحلة تاريخية سابقة. وأزعم أنّ أثر بصمة الزّمن تكون أكثر بروزًا في ذاكرة الإنسان الذي جرب العيش خلال مرحلتين تاريخيتين انتقاليّتين كما هو الحال بالنّسبة للشّاعر سعيد الزّبيدي. فمن المعلوم أنّ الزّبيدي يمثّل حلقة بين جيلين: جيل الرّواد الأوائل من الشّعراء واللّغويين الكبار، وجيل العقول التي دفعت ثمن انتكاسات الوطن، وعطّلت، أو حُملت على الغربة<sup>(٤٠)</sup>، وبالتالي فهو شاهد على مرحلة التّضج، ومرحلة الأفول، وعاش أحداثًا سياسيّة على المستوى الشّخصيّ في بلده العراق، إضافة إلى أنّه شاهد على محطات زمنيّة فارقة عاشها الوطن العربيّ على امتداده، ولا شكّ أنّ الزّمن بأحداثه ومآسيه ترك بصمته في شعره. تُفقد الغربة الزمنية الإنسان والشاعر ثقته في نفسه وذاته؛ لأنه يشعر بأنه صارًا تراثًا قديمًا ورجعيًا، فتبدو أفكاره ومعتقداته الثقافية والإبداعية في نظره قبل نظر الآخرين غريبة عن هذا الزمن؛ فيعزل ويتخفى وراء قلمه علّه يساعده في تجاوز هذه الغربة أو الحالة.

وتمثّل الغربة النّفسية خاصيّة من خصائص قصيدة الزّبيدي، وإن لم تكن بارزة بروز غربته المكانية، لكن نلمحها في قصائده التي تطرق معاني الحزن، واليأس، وموقفه النّفسي والفكريّ من الزّمن والنّاس، والموت على نحو خاصّ، وهي على كلّ حال لا تصل إلى درجة الانسلاخ عن الواقع، وإيثار العزلة، واعتبار الآخر جحيماً، والوجود مضمحلًا وعقيمًا، كما نقرأ عند بعض الأصوات الشّعريّة الحديثة<sup>(٤١)</sup>

في قصيدة الزبيدي «ليل اغترابي وصاحبه» يشكو الشّاعر ليل الغربة، وأنّه يراوح بين الهاتف والكتاب علّه يجد سلوى تبّد وطأة الزّمن القاسي عليه بعد رحيل رفاق دربه، ومضيه وحيدًا، يفتّش في الذاكرة عمّا يمنحه العزم على مواصلة السّير، مستمسكًا بالأمل... يقول: «فأهربُ من ذا إلى داخلي/ فأعدو أسيرًا وقيدي اكتئاب!/ إلى أن أتاني ضياء الصباح/ يراني حُطامًا، صباح اغتراب»<sup>(٤٢)</sup>.

إنّ ليل المغترب المثقل بالهواجس والهموم وذكريات الذين مضوا -كما يصوّره الاقتباس- صار فوق القدرة على التّحمّل، فيهرب الغريبُ من حاضره محاولًا التّشبث بأمل أن «الغد سيكون أفضل»، وأن القادم آت ليبدّد حلقة ظلام اللّيل، لكنّه يصدم بالواقع أنّ الأيام حلقة مفرغة، تمرّ متشابهة، لا تحمل انفراجة ولا بصيص أمل.

ولعلّ الغربة أمام الزّمن أكثر بروزًا في قصائد الشّاعر التي خصّ بها تهنئة نفسه في بعض محطات العمر، على غرار قصيدته «ردًا على السّبعين»، إضافة إلى قصائده التي كتبها في تأريخ عامٍ جديدٍ، أو وداع بعض رفاقه، أو رثاء بعضهم من أمثال الدّكتور علّال الغازي، والجواهري.

أقتبس من قصيدته «ردًا على السبعين» قوله:

دلفت بيّ السبعون زحفاً \* وسفتني الأيام صرفا

عاشت بذاكرتي غوى \* تجتاحها محوًا وعسفا [...]

كم أوهنت مني الخطا \* عنتًا، وجرّتها لمنفى

فلعنتها سرًا، أتدري لا تقيّة ذا وخوفا؟

بل أبتغي ردًا يكافئ ما جننت، وأنال نصفا

وأري لها أنّي سأخلد بعدها صوتًا وحرفا

وأظلّ عنوانًا لمغتربٍ إذا ما رام مرفا<sup>(٤٣)</sup>

فالشّاعر يشكو سنين العُمر، وما جرّته على الإنسان من مدّ وجزر، ويعترف أمامها بما نالته من جسده وما وشمته بأحداثها الجسام في ذاكرته، لكنّه لا يقف منكسرًا، باكيًا، ولا يأخذ العزلة السلبيّة مهربًا، إنّما يُعلن المواجهة والتّحدي، والإصرار على المضيّ نحو الهدف الذي رسمه لنفسه. ويختار الشّاعر أن «يُسرّ» إلى نفسه موقفه من صروف الزّمن وأحداثه، ولا يجاهر به كي لا يشمت الزّمن من حاله فيضاعف وحشة غربته، وسوء حاله. ويلجّ الشّاعر مخاطبًا الزّمن أنّه لن يرضى بأقل من أن يكون «قدوة» للمغتربين، و«سندًا» و«مرفًا» لهم يقصدونه ليشدّ من عضدهم لمواجهة الواقع المفروض عليهم.

يقول في قصيدته «الشمعة السبعين»<sup>(٤٤)</sup> فيما يشفّ عن غربة نفسيّة لاذعة أمام الزّمن، وما حمله من أحداث تجاهد النّفس على الصّبر عليها وتحملها: «دع الأيام تنتظر/ لآتٍ خطّة القدر/ فكم كُنّا نعاتبها/ ونأمل أن ستعتذر/ [...] / وأتعبنا الخطى سعيًا / فلم يتبيّن الأثر/ وتلهت بينها السبعون، / هل يسترجع العُمر؟».

ويطرق الشّاعر معنى اليأس في قصيدته «لا بدّ»<sup>(٤٥)</sup> حيث يقول:

فلقد تشظّي في التّغرب \* لوعةً منّا الوريدي

وطغى الأنينُ فما شدا \* نايٍ ولا رقص القصيد

لم يبقَ في كأس الحياة \* ثمالةً، فُل ما تريد!

ومع ذلك يتدارك أوج انكسارات الذات، وانسداد الأفق، ويصرّ على التشبث بالحياة، والأمل، وإعلان التحدي والإصرار:

إني سأنتظر المواسم \* واثقاً فالعيد عيداً!

وبالتالي فلا ينزع صوت الغربة في نصوص الزبيدي نحو السلبيّة والتشاؤم، بل ينقل المأساة، ويعلن التحدي والإصرار على المواجهة. وأجد في هذا الأمر انعكاساً للذات المرجعية للشاعر نفسه إذ عُرف بالإصرار على التمسك بالأمل، وقوة الإرادة. ومن هذا قصيدته «أبا محمد»<sup>(٤٦)</sup> المهداة لمرزة كريم الصالحي إذ يشكو الشاعر مرارة الزّمن وشعوره بالغربة فيه، ويؤكد أنّ الزّمن وإن نال من قوة البدن، فهذه سنّة الكون، لكنّه حتماً لن يهزم إرادة الذات وعزيمتها، وسيظلّ متشبّثاً بالأمل، والحياة:

أبا محمد، إنّ الليل أبكاني \* فلا أنيسَ به، لا نومَ يغشاني [...]

عشرون ما هزمت مَنّي سوى جسدي \* والحمدُ لله فيه طبعُ إنسان  
عشرون قد طوّحت بي عنك مُغترباً \* وجرححتني بأظفار، وأسنان...

وتشفّت قصيدة أخرى مهداة لمرزة الصّالحي، بعنوان «أبا محمد ثانية»<sup>(٤٧)</sup>، عن الغربة النفسية في شعر الزبيدي، إذ يشكو الشاعر لصاحبه قسوة الزّمن، وتقلّب الحال، وشحوب الذكريات، ويؤكد رسوخ الودّ بين الصديقين رغم طول المسافة بينهما وتعذر اللقاء:

أبا محمد، من ذا يُدخل الفرحة \* على الغريب الذي عن داره نزحاً؟

عن الوحيد الذي أعيا تَلَقُّتُهُ \* أن لم يجد حوله إلا الذي جرحاً!

ففي الودّ والتذكّر سلوى المغترب كما يقول الشاعر في قصيدته «حرف مغترب»<sup>(٤٨)</sup>، هذا مع أنّهما صاراً سبباً لأرق الرّقيب، إذ صار تمسكه بوطنه، وسؤاله عن دار أبيه وأخبارهما، وما إذا «نفضت مواجعا» مقلّفاً للمخبرين، والمتأمّرين عليه.

ويدهمهم الهَمّ ليل المغترب، حتى يصير ك لصقة قلق في نفسه يضيق معها العالم بأسره. يقول في قصيدته «العالم المفروض»: «لم تُعَدْ تنفكُ عن وجهي، / وعن عيني، / وعن قلبي، / همومي! / لازمتني، أدمنتني، / فغدث بعض رسومي! / فأنا مغتربٌ، / وهي في صحبتنا لم تغترب! / بل غدث أكثرَ قربًا...»<sup>(٤٩)</sup>. فالهم أصبح صاحبًا وفيًا للذات، لا يغادرها.

ويجعل الشاعر من قصائده التي قالها في وداع بعض رفاقه مطية لبث لواعج غربته النفسية بفعل الزمن، ويعلمهم أنه ورفاقه تجرّعوا هموم الغربة وقسوتها، غير أنّ رحيلهم عنه سيضاعف قسوة الزمن في نفسه، فليبقوا حبال الوصل ممدودة بينه وبينهم علّها تكون حيلة أو متنفسًا. ومن ذلك قصيدته «أعزني يا أبا ودّي اصطبارًا» التي قالها مودّعًا زميله الدكتور محمد علي الدقة بمناسبة انتهاء عمله، ومنها:

وأنت -محمدٌ - مثلي اغتربًا \* جرّعنا منه ما لا يُستطاع

وضاعت زهرة العمر المندى \* تلاقفها كلاب بلّ ضباغ

أعزني يا أبا ودّي اصطبارًا \* فما في طاقتي بعد اتساع...<sup>(٥٠)</sup>

في هذا الاقتباس يحرص الشاعر على تذكير المخاطب أنّهما اشتركا في الغربة، وجربا معًا تجرّع مرارة قسوتها، وبذلا العمر في رحلة فُرِضت عليهما بعيدًا عن الوطن، ويذكره كذلك بأنّهما تحدّيا كلّ المنغصات والعقبات شأن أيّ مغترب، فحسبه أن يحتفظ بهذه الذكريات وهو راحلٌ ليبقى الودّ قائمًا، وحبال الوصل ممتدة بين الصديقين، ففي هذا حسن عزاء المودّع، ووقود الصبر الذي يدفعه للتغلب على تقلّب الزمن الذي صار أشدّ وطأة وأكثر قسوة عليه بعد رحيل الأصدقاء.

وهكذا تتضاعف مرارة الغربة في نفس الشاعر برحيل الأصدقاء، فيشكو لرفيقة دربه همّة الذي ضاق به بعد أن عبر الزمن بأحداثه الجسام عليه، فبهتت صور الماضي الجميل في الذاكرة، ومضى رفاق الدرب بعيدًا عنه، أو مغادرة لهذا العالم:<sup>(٥١)</sup>

وكم تلفتُ أستجلي بها صورًا \* كانت تخفّف عني ما تغشّاني

وجدتها بهتت من طول غربتنا \* ومن صراعي وحيدًا دون أقراني

ويمدّ الشّاعر بينه والمخاطب جسور ودّ من خلال طرق مأساة الدّات في شعورها بغربة نفسيّة عميقة، والحديث عن وطن نُكِبَ بالفساد والفاستدين، فأصبح المرء غريبًا عمّا حوله، منكفأ على أوجاعه وأمنيّاته. يقول في قصيدته «أخا صنعاء» مخاطبًا صديقه الشّاعر عبد العزيز المقالح: (٥٢)

تقاسمت الخُطى درب المنافي \* وجردهم من الأوطان وغد

فبعضٌ تحت نجمٍ في اغتراب \* وبعضٌ ضمّه في السرّ لحدّ

وفي قصيدته «قيل وقلت» (٥٣)، يلجأ الشّاعر إلى إيمانه بالله يستمدّ منه القوّة لمواجهة همّ الغربة ووطأة ليلها، وما يضرمه في نفس الغريب من قلقٍ، وحزنٍ، وأسى. ينصحه النّاس أن يشكو همّه إلى أحبّته، لعلّهم يخفّفون عنه ما يجده من زمنه، ويواسونه، لكنّه لا يجد في الشّكوى إلى مخلوق أيّ راحة تمسح عن النّفس كدرها، فالسلّوى في الشّكوى لله وحده – كما يقول؛ فالله من يمسح برحمته عن النّفس وجلها، ويقوي وهن البدن وضعفه: «... وعدتُ ... / فلم أجد، / سواه ملاذًا، / يملأ النّفس راحةً، / بتسبيحةٍ، / أو بالدعاء، أو الحمد! / فيا ربّ، / هيئ لي هديّ، إنّ غربتي/ استطلت، / وأضحى ما لديّ ضعيفًا! / أرى بصري يعشو، / وكفّي كليله، / ولكنّما الإيمانُ / في داخلي يهدي». (٥٤)

تحدث الشّاعر عن وقع هذه الأحداث على نفسه، فالاستعمار والفساد حاصرا الإنسان، واستباحا ثروات بلاده ولقمة عيشه، وسلباه أبسط حقوقه، والشّر صار طبعًا بين النّاس والخير صنعة، ما ترك في داخله غربة عن واقعه المحيط، وهمًا ثقيلًا في محاولة التّفكير في مخرج من التّفق المظلم الذي آلت إليه الحال: «حاصروني، / منذ... لا أدري متى؟ / منذ (هولاكو) أتى! / منذ (بوش) لست أدري! / بدأوا في: لقمة العيش التي دفعتني / لأهاجر! / [...] / وإذا جنّ عليّ الليل وحدي / هاجمتني فيه أضغاث الخواطر / وصراعٌ قد تحداني بـ(ماذا) و(كيف)؟» (٥٥)، ثمّ يذهب إلى الحديث عن ليل الغربة وكيف غدا التّفكير فيما تؤول إليه الحال همًا عظيمًا أذبل العمر وأوهن البدن.

ولعلّ إحساس الشّاعر بعدم التّقدير أحد أسباب الشّعور بالعجز والغربة النّفسية (٥٦) التي نلمحها في بعض قصائده، ومن بينها مثلًا قصيدته «بابل» (٥٧) التي أشرنا إليها سابقًا، و«دعني وجراحتي» التي انتهى فيها بسطر يحمل «نبرة إحباط ويأس»: «لم يعُدّ عندي وطنٌ!» (٥٨)، فالوطن استباحته «الخفافيش» في إشارة إلى الفساد، وانسداد أفق الأمل في الإصلاح.

ويلجأ الشاعر إلى اللغة يبدد بها وطأة غربته النفسية وإحساسه بالفوضى والأسى، يقول في قصيدته:  
«أفضُّ لطفًا»: (٥٩)

تشابهت الحروف هنا وغازت \* لديّ وعطّلت فيها المعاني  
وكانت لي ملاذًا في اغترابي \* أغني أو أواجه ما دهاني...  
ولولا أحرفٌ وسليمُ فكرٍ \* فقدتُ بمسرح الدنيا اتزانِي...  
فيتوسّل الشاعر اللّغة أداة تكيف مع غربته، ويتشبث برهان الفكر لمواجهة الواقع المأزوم.

**وأخيرًا:** فإنّ الغربة في شعر سعيد جاسم الزبيدي موضوع أصيل، تبني قصائده من خلال هذه الثيمة جسور وصل بين بعضها البعض على امتداد إنتاجه الشعريّ، فجاءت قصيدته متفاعلة، متصافرة، متجاوزة همّ الذات وحدود التجربة الشخصيّة، لتشمل تعبير الشاعر عن معاناة المغتربين الذين دفعتهم الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة خصوصًا، للزوح من أوطانهم، وإحساسه بتجارب النفي والضياع التي يعيشها الإنسان بعيدًا عن وطنه.

وأملنا أن يكون هذا المقال دافعًا للالتفات إلى هذه القضية في شعر سعيد الزبيدي، وتقديمها في دراسة موسّعة من قبل المتخصّصين في الشعر أو المهتمّين بدراسته.

هوامش البحث

<sup>١</sup> نوزاد حمد عمر، الغربة في شعر كاظم السماوي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمّان، ط. ١، ٢٠١٣، ص. ١٣.

<sup>٢</sup> مثلًا: جورج هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١)، وفرديريك شيلر (١٧٥٩ - ١٨٠٥)، وجان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨)، كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣)، ودور كايم (١٨٥٨ - ١٩١٧) وغيرهم. ينظر مثلًا: حلّيم بركات، الاغتراب في الثقافة العربيّة: مناهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٦، ص. ٣٧ - ٥٣.

<sup>٣</sup> ينظر مثلًا: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ج. ٤، ط. ١، ١٩٩٠. ص. - ص. ٤٢٠ - ٤٢١، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. ١، ١٩٦٧، ص. ١٩٧، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج. ١١، ط. ٣، ٢٠٠٤، ص. ٢٣. (عَرَب).

<sup>٤</sup> قيس النوري، الاغتراب اصطلاحًا ومفهومًا وواقعًا، مجلة عالم الفكر، مج. ١٠، ع. ١، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٩، ص. ١٣.

<sup>٥</sup> منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط. ١، ١٩٨٢، ص. ١٦.

- <sup>٦٠</sup> ينظر: نوزاد حمد عمر، سابق، ص.ص. ٢١-٢٢.
- <sup>٧٠</sup> ينظر: نفسه، ص. ٢٢.
- <sup>٨٠</sup> ينظر: أحمد مشاري العدوان، الاغتراب مصطلحًا ومفهومًا، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع. ١، ١٩٧٩، ص. ١٨، وينظر أيضًا: مسعد بن عيد العطوي، الفكر والشكل: في الشعر السعودي المعاصر، عالم الكتب الحديث، إربد، ط. ١، ٢٠٠٧، ص. ٢٧٠.
- <sup>٩٠</sup> أحمد جواد مغنية، الغربة في شعر محمود درويش ١٩٧٢ - ١٩٨٢، الفارابي، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٤، ص. ١٨، وانظر أيضًا: قيس النوري، الاغتراب اصطلاحًا ومفهومًا وواقعًا، ص. ١٨.
- <sup>١٠٠</sup> قيس النوري، سابق، ص. ١٩.
- <sup>١١٠</sup> خالدة سعيد، حركية الإبداع: دراسات في الأدب العربي الحديث، دار الفكر، بيروت، ط. ٣، ١٩٨٦، ص. ٤٦.
- <sup>١٢٠</sup> الدواوين السبعة الصادرة هي: «وأرى العمر يضيء» (٢٠٠٠)، و«أفق يمتد» (٢٠٠٦)، و«نوافذ» (٢٠٠٦)، و«على رصيف الغربة» (٢٠٠٧)، و«صوت بلا صدى» (٢٠٠٩)، و«التفعلية الأخيرة» (٢٠١٣)، و«لملم حروفك» (٢٠٢١).
- <sup>١٣٠</sup> كنوز المعرفة، عمان، ط. ١، ٢٠٠٧.
- <sup>١٤٠</sup> محمّد مدني، مقدّمة ديوان على رصيف الغربة، سعيد جاسم الزبيدي، كنوز المعرفة، عمان، ط. ١، ٢٠٠٧، ص. ١١.
- <sup>١٥٠</sup> نفسه، ص. ١٢.
- <sup>١٦٠</sup> كنوز المعرفة، عمان، ط. ١، ٢٠٢١.
- <sup>١٧٠</sup> سعيد الزبيدي، لملم حروفك، كنوز المعرفة، عمان، ط. ١، ٢٠٢١، ص. ٧.
- <sup>١٨٠</sup> نفسه، ص. ٨.
- <sup>١٩٠</sup> نوزاد حمد عمر، سابق، ص. ٣٩.
- <sup>٢٠٠</sup> الجاحظ، المحاسن والأضداد، مطبعة السعادة، مصر، ط. ١، (د، ت)، ص. ٧٧.
- <sup>٢١٠</sup> سعيد الزبيدي، على رصيف الغربة، ص. ٩٦.
- <sup>٢٢٠</sup> سعيد الزبيدي، لملم حروفك، كنوز المعرفة، عمان، ط. ١، ٢٠٢١، ص. ١١٥.
- <sup>٢٣٠</sup> نفسه، ص. ٦١.
- <sup>٢٤٠</sup> نفسه، ص. ٦٢.
- <sup>٢٥٠</sup> سعيد جاسم الزبيدي، على رصيف الغربة، كنوز المعرفة، عمان، ط. ١، ص. ٦٣.
- <sup>٢٦٠</sup> الجاحظ، سابق، ص. ٧٧.
- <sup>٢٧٠</sup> سعيد جاسم الزبيدي، لملم حروفك، سابق، ص. ٥٣.
- <sup>٢٨٠</sup> نفسه، ص.ص. ٥٣ - ٥٤.

- ٢٩) نفسه، ص. ٣٨.
- ٣٠) نفسه، ص. ١٣.
- ٣١) نفسه، ص. ١١٥.
- ٣٢) نفسه، ص. ٢١.
- ٣٣) نفسه، ص. ص. ٤٧- ٤٨.
- ٣٤) نفسه، ص. ٤٨.
- ٣٥) نفسه، ص. ٦٩.
- ٣٦) نفسه، ص. ص. ٤١ - ٤٣.
- ٣٧) صلاح بوسريف، الكِتَابِيّ وَالشَّفَاهِيّ: فِي الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْمُعَاوِرِ، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط. ١، ٢٠٢٢، ص. ص. ١٨-١٩.
- ٣٨) سعيد جاسم الزبيدي، لملم حروفك، سابق، ص. ص. ٨٤.
- ٣٩) أ. مندلاو، الزّمن والرّواية، تر. بكر عباس، مر. إحسان عباس، دار الشروق، مصر/ دار صادر، بيروت، ط. ١، ١٩٩٧، ص. ٨.
- ٤٠) يكتب الدكتور سعد حسن عليوي في شهادته التي ستنشر ضمن هذا الكتاب التكريمي عن أستاذنا الزبيدي: «إن الدكتور سعيد الزبيدي أصبح يمثل الحلقة المفقودة بين جيلين جيل الرّواد الأوائل أمثال الدكتور مصطفى جواد والدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور علي جواد الطاهر والدكتور عناد غزوان -رحمهم الله-، والدكتور فاضل صالح السامرائي -أطال الله في عمره-، هؤلاء الذين صار كل واحد منهم مدرسة لإرثهم الكبير الذي ترجمته كتبهم ومؤلفاتهم التي شغلت مساحة كبيرة في المكتبة العربية وبين جيل تلامذتهم البؤساء الذين دمّرت نفسيّتهم الحروب ومآسي الحصار وأخيراً الاحتلال البيغض الذي مكّن عاث في البلاد فساد لحق بالعلم، وأدّى الى تدهور البلاد في كل مجالات الحياة وعلى مدى أكثر من عقدين من الزمان».
- ٤١) يُنظَر مثلاً: عصام شرتج، تحولات الخطاب الشعري عند أدونيس (بين فلسفة الجزئيات وتجريد الكليات)، ط. ١، ٢٠١١، ص. ٣٢.
- ٤٢) سعيد جاسم الزبيدي، لملم حروفك، سابق، ص. ص. ٧٤.
- ٤٣) نفسه، ص. ٨١.
- ٤٤) نفسه، ص. - ص. ٤٥.
- ٤٥) سعيد جاسم الزبيدي، على رصيف الغربة، سابق، ص. ٧٨.
- ٤٦) سعيد جاسم الزبيدي، لملم حروفك، سابق، ص. - ص. ٤٩- ٥٠.
- ٤٧) نفسه، ص. - ص. ٦١- ٦٣.
- ٤٨) سعيد جاسم الزبيدي، على رصيف الغربة، سابق، ص. ٧٤.

- ٤٩) سعيد جاسم الزبيدي، على رصيف الغربة، سابق، ص.ص. ٤٢-٤٣.
- ٥٠) سعيد جاسم الزبيدي، لملم حروفك، سابق، ص. ٨٥.
- ٥١) نفسه، ص. ٥٥.
- ٥٢) نفسه، ص. ١٦٦.
- ٥٣) نفسه، ص.ص. ٩١-٩٢.
- ٥٤) نفسه، ص.ص. ٩١-٩٢.
- ٥٥) نفسه، ص.ص. ١٢١.
- ٥٦) حلیم بركات، سابق، ص. ٢٧.
- ٥٧) سعيد جاسم الزبيدي، لملم حروفك، سابق، ص. ٤٨.
- ٥٨) سعيد جاسم الزبيدي، على رصيف الغربة، سابق، ص. ٢٦.
- ٥٩) نفسه، ص.ص. ١٣٣ - ١٣٤.

### مصادر ومراجع:

- أ. مندلاو، الزمن والرواية، تر. بكر عباس، مر. إحسان عباس، دار الشروق، مصر/ دار صادر، بيروت، ط. ١، ١٩٩٧.
- أحمد جواد مغنية، الغربة في شعر محمود درويش ١٩٧٢ - ١٩٨٢، الفارابي، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٤.
- أحمد مشاري العدوان، الاغتراب مصطلحاً ومفهوماً، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع. ١، ١٩٧٩.
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ج. ٤، ط. ١، ١٩٩٠.
- حلیم بركات، الاغتراب في الثقافة العربيّة: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٦.
- خالدة سعيد، حركية الإبداع: دراسات في الأدب العربي الحديث، دار الفكر، بيروت، ط. ٣، ١٩٨٦.
- سعيد جاسم الزبيدي، على رصيف الغربة، كنوز المعرفة، عمّان، ط. ١، ٢٠٠٧.
- سعيد جاسم الزبيدي، لملم حروفك، كنوز المعرفة، عمّان، ط. ١، ٢٠٢١.
- صلاح بوسريف، الكتابي والشفاهي: في الشّعر العربيّ المعاصر، فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، ط. ١، ٢٠٢٢.
- عبد الرزاق الخشروم، الغربة في الشّعر الجاهليّ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط. ١، ١٩٨٢.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، مطبعة السعادة، مصر، ط. ١، (د، ت).

- عصام شرتح، تحولات الخطاب الشعري عند أدونيس (بين فلسفة الجزئيات وتجريد الكليات)، ط. ١، ٢٠١١.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج. ١١، ط. ٣، ٢٠٠٤.
- قيس النوري، الاغتراب اصطلاحًا ومفهوميًا وواقعيًا، مجلة عالم الفكر، مج. ١٠، ع. ١، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٩.
- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. ١، ١٩٦٧.
- مسعد بن عيد العطوي، الفكر والشكل: في الشعر السعودي المعاصر، عالم الكتب الحديث، إربد، ط. ١، ٢٠٠٧.
- نوزاد حمد عمر، الغربة في شعر كاظم السماوي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط. ١، ٢٠١٣.